سلسلة الموسوعة التراثية للشباب

زاد المعاد
في هدي خير العباد
لابن قيِّم الجوزية

بقلم

محمد رجب

مكتبة العبيكان

obeikandl.com

ح مكتبة العبيكان، ١٤٢٢هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

لجنة التأليف والترجمة بمكتبة العبيكان

زاد المعاد في هدي خير العباد للعلامة ابن قيم الجوزية - الرياض

٦٢ص، ١٧×٢٢سم - (الموسوعة التراثية للشباب)

ردمك: ٢-٩٨٢-٢٠-٩٩٦٠

١- السيرة النبوية ٢- ابن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر ٧٥٠هـ

أ- العنوان ب- السلسلة

ديوي ٢٣٩ ٢٢/١٥٣١

رقم الإيداع: ١٥٣١/٢٢ ردمك: ٢-٩٨٢-٢٠-٩٩٦٠

الطبعة الأولى

١٤٢٢هـ/٢٠٠١م

حقوق الطباعة محفوظة للناشر

الناشر

مكتبة العبيكان

الرياض - العليا - تقاطع طريق الملك فهد مع العروبة

ص.ب: ٦٢٨٠٧ الرياض: ١١٥٩٥

هاتف: ٤٦٥٤٤٢٤ فاكس: ٤٦٥٠١٢٩

obeikandl.com

obeikandl.com

obeikandl.com

التعريف بالمؤلف:

هو: الإمام محمد بن أبي بكر بن سعد بن حريز الزرعي الدمشقي، الملقب: شمس الدين، والمُكنَّى بأبي عبدالله، والمعروف بابن القيِّم أو بابن قيِّم الجوزية، من أعلام الفكر الإسلامي في أواخر القرن السابع الهجري إلى منتصف القرن الثامن الهجري.

ولد عام (٦٩١ هـ)، ونشأ في بيت علم وفضل، وتلقى علومه الأولى على والده، ودرس عليه علم الفرائض، كما تلقى العلم على أيدي كثير من العلماء البارزين في عصره، والجوزية نسبة إلى المدرسة التي بناها أبوالفرج عبدالرحمن بن الجوزي بسوق القمح بدمشق وكان والد الإمام ابن القيِّم قيِّماً عليها..

من شيوخ الإمام ابن القيِّم شيخ الإسلام تقي الدين أحمد بن عبدالحليم الحراني ابن تيمية، صاحب المصنفات الجليلة في علوم القرآن وشرح السنة، ومن عيون كتبه: (اقتضاء الصراط المستقيم)، و(الصارم المسلول على شاتم الرسول)، و(منهاج السنة)، و(السياسة الشرعية)، وغيرها كثير. وقد جُمعت فتاواه وطبعت في (٣٧) مجلداً بما فيها مجلدا الفهارس.

لزم الإمام ابن القيِّم أستاذه حتى في سجنه، ولم يفرج عنه إلا بعد وفاة ابن تيمية سنة (٧٢٨) هـ.

أخذ الإمام ابن القيِّم عن أستاذه التفسير وأصول الدين وعلم الأحكام.. ثم هذَّب كتب شيخه ابن تيمية، ونشر علمه؛ كما يقول الحافظ ابن حجر العسقلاني..

ومن شيوخه كذلك مجد الدين إسماعيل الحراني المتوفى سنة (٧٢٩هـ)، وكمال الدين الزملكاني شيخ الشافعية في الشام، والقاضي أحمد بن محمد بن عبدالله الشيرازي الدمشقي المتوفى سنة (٧٣٦هـ)..

كانت ثقافة الإمام ابن القيِّم متنوّعة، وكان عبّاداً صوّاماً متهجداً.. وكان إذا صلى الصبح جلس مكانه يذكر الله تعالى حتى يتعالى النهار..

يقول عنه الإمام ابن رجب الحنبلي في (طبقات الحنابلة): « وتفنن في علوم الإسلام، فكان عارفاً بالتفسير لا يجارى فيه، وبأصول الدين وإليه فيه المنتهى، وبالحديث ومعانيه وفقهه، ودقائق الاستنباط لا يُلحق في ذلك، وبالفقه وأصوله، وبالعربية وله فيها اليد الطولى، وبعلم الكلام وغير ذلك، وعالماً بعلم السلوك وكلام أهل التصوف وإشاراتهم ودقائقهم، له في كلٍّ من هذه الفنون اليد الطولى ».

ويقول عنه الإمام الذهبي: «عُني بالحديث ومتونه، وبعض رجاله، وكان يشتغل بالفقه ويجيد تقريره، وفي النحو ويدريه، وفي الأصلين».

ويقول عنه تلميذه العلامة ابن كثير في كتابه (البداية والنهاية):

«وكنت من أصحب الناس له، وأحبهم إليه، ولا أعرف في هذا العالم من زماننا من هو أكثر عبادة منه، وكانت له طريقة في الصلاة يطيلها جداً، ويمد ركوعها وسجودها، ويلومه كثير من أصحابه في بعض الأحيان، فلا يرجع ولا ينزع عن ذلك رحمه الله».

وابن القيِّم كثير الاعتراف بفضل الله تعالى عليه، وإكرامه له، وأنه عاجز كل العجز، ومقصر كل التقصير، وهذا يدلنا على ما كان من ورعه وصدق العقيدة والتواضع الجمّ، يقول في قصيدته الميمية واصفاً حاله:

بني أبي بكر كثير ذنوبه ... فليس على من نال من عرضه إثم
بني أبي بكر غدا متصدراً ... يعلم علماً وهو ليس له علم

وقد أورد الحافظ ابن حجر العسقلاني القصيدة بتمامها في معرض الحديث عن أستاذه الإمام ابن القيِّم في كتابه (الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة)..

عاش الإمام ابن قيِّم الجوزية ستين عاماً؛ إذ توفي عام (٧٥١هـ) الموافق لعام (١٣٥٠) للميلاد.. فرحمه الله رحمة واسعة.

مؤلفاته:

صنف العلامة الإمام ابن القيِّم نحو الستة والستين مصنفاً ضخماً، وكانت مصنفاته في شتى الموضوعات؛ كالتفسير، والفقه، والحديث النبوي، والأحكام، ومن عيون مؤلفاته:

* مفتاح دار السعادة.
* أعلام الموقعين عن رب العالمين.
* الطرق الحكمية في السياسة الشرعية.
* الصلاة وأحكام تاركيها.
* إغاثة اللهفان في مكائد الشيطان.
* تهذيب السنة لأبي داود.
* الوابل الصيب من الكلم الطيب.
* جلاء الأفهام في فضل الصلاة والسلام على محمد خير الأنام.
* تحفة المودود بأحكام المولود.
* مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين.

* الفوائد.
* عِدَةُ الصابرين وذخيرة الشاكرين.
* طريق الهجرتين وباب السعادتين.
* الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة.

بالإضافة إلى كتابه العظيم الذي تحدث فيه عن سيرة خير الأنام ﷺ؛ كتاب:

(زاد المعاد في هدي خير العباد)

والذي هو موضوع كتابنا الذي اخترناه لك -عزيزي الشاب- من مكتبة الإمام ابن القيِّم الزاخرة..!

عصر ابن القيِّم:

عاش العلامة الإمام ابن القيِّم أواخر القرن السابع إلى منتصف القرن الثامن الهجريين. في تلك الفترة التي يُطلق عليها العصور الوسطى، عاش في ظروف صعبة؛ إذ كان المجتمع الإسلامي في ذلك الحين يموج بشتى التيارات المتعارضة الفكرية، كما كانت البلاد الإسلامية مهددة بالغزو الأوربي من الصليبيين الذين استولوا على معظم المدن الساحلية بالشام، ودخلوا بيت المقدس وهدموا أركانه، وفعلوا فيه المنكرات، ومن التتار الذين أسقطوا بغداد عاصمة الخلافة الإسلامية عام (٦٥٦هـ) على يد هولاكو..!

لكن لم يلبث أن قضى الله بالنصر، ودحر ذلك الغزو على يد الأشرف خليل بن قلاوون الذي قهر الصليبيين وأجلاهم عن الشام، وعلى يد قطز في موقعة عين جالوت، الذي قضى على الغزو التتري عام (٦٥٨هـ)..

لكن المهم: كيف كانت صورة الدولة الإسلامية عقب التخلص من الغزو الأوربي..؟!

لقد كانت الدولة الإسلامية مهمومة مما أصابها من خراب، وطمحت إلى إصلاح ما أصاب المسلمين بالرجوع إلى كتاب الله وسنة المصطفى ﷺ.

وانبرى شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه الإمام ابن القيِّم للقيام بمهمة إصلاح أحوال العالم الإسلامي.. فدعوا إلى التمسك بكتاب الله سبحانه وسنة الرسول الكريم ﷺ، ونبذ الخلاف القائم بين المسلمين..

في ذلك الوقت كان النزاع المذهبي والخلاف الديني بين الفرق الإسلامية على أشده، مما جرَّ على البلاد الخراب والدمار، ومن أمثلة ذلك النزاع ما حدث بين السنة والشيعة، وبين شيخ الإسلام ابن تيمية وقضاة عصره الذين ادعوا أنه خرج على الإجماع، ورفعوا أمره إلى السلطان الذي حاكمه وسجنه.

من هنا كانت دعوة الإمام ابن القيِّم هي أصلاً للإصلاح الديني، فقد تأخر المسلمون بسبب بعدهم عن الإسلام، وعدم وجود حرارة الإيمان في

قلوبهم، وجمودهم عند نصوص القدماء وتقليدهم لآرائهم من غير تنقيب أو بحث.

فتح الإمام ابن القيِّم باب الاجتهاد والبحث، وأخذ نفسه بهذا المبدأ في بعض المسائل، وقراءة كتب القدامى ونقدها، مما جرّ عليه الويلات وأدى إلى سجنه مع أستاذه شيخ الإسلام ابن تيمية!

منهجه في التأليف:

أكد الإمام ابن القيِّم في تآليفه على ضرورة الرجوع في المسائل المختلف فيها إلى كتاب الله جل وعلا وسنة نبيه ﷺ، وفهمها على فهم أصحاب النبيّ ﷺ وأهل القرون الثلاثة المفضلة الذين شهد لهم النبيُّ ﷺ بالخيرية.

ومن خصائص منهج الإمام ابن القيِّم أنه إذا عرض لفكرة ما أو مسألة يورد الأقوال المذكورة فيها ويسردها جميعاً، ثم يناقش حجج كل منها.. فيرفض منها ما لا يتفق مع الدين والعقل، ويؤيد ما يوافق الدين والعقل..

وقد يوقف بعض كتبه على موضوع واحد بالذات، كما فعل في بعض كتبه مثل:

* حادي الأرواح. * شفاء العليل. * الصواعق المرسلة.

كتاب زَاد الـمَعَادِ في هَدْيِ خَيْرِ العِبَادِ

كتاب (زاد المعاد) ضخم وشامل للعديد من الموضوعات التي خصَّ بها مؤلفه الإمام ابن القيِّم خير العباد، خاتم النبيين محمداً ﷺ بأسلوب قشيب رائع.

يبدأ الإمام ابن القيِّم مسيرته مع الرسول ﷺ بالحديث عن فضائل بلد مولده ﷺ مكة المكرمة، فيشيد بخصائصها، ويتطرق إلى الحج وإلى تربية النبي ﷺ وإلى مبعثه، ويعرّج بالذكر على أولاده وأزواجه، ويتحدث عن غزواته ﷺ، وبعوثه وسراياه، ويخصص جزءاً كبيراً للحديث عن هدي الرسول ﷺ في العبادات؛ كالصلاة، والصيام، والحج، والمعاملات كالتجارة، والحياة العامة، والدعوة إلى الله، وبناء المساجد، ومعاملة الأسرى.

موضوعات شيقة، رسولنا ﷺ هو القدوة الحسنة التي أمرنا باتباعها والتأثر بها.. لأنه المصطفى المختار من رب العالمين الذي أنزل عليه خير الكتب من السماء..!

هيا عزيزي الشاب نطالع معاً في تؤدة ذلك الكتاب الرائع، كي نتذوق أحلى الرحيق، ونحظى بأنفس الدرر واللآلئ..!

مكة وخصائصها:

يتحدث الإمام ابن القيِّم في خشوع وإحاطة عن مكة المكرمة؛ حيث ولد الرسول الخاتم ﷺ.

إن مكة هي البلد الحرام الذي اختاره سبحانه وتعالى لنبيه ﷺ، وأوجب على عباده الإتيان إليه من كل فجٍّ عميق، وجعله حرماً آمناً، وجعل قصده مكفّراً لما سلف من الذنوب، ماحياً للأوزار، حاطّاً للخطايا.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال ﷺ: «**من أتى هذا البيت فلم يَرْفُث، ولم يَفْسُق، رجع كيوم ولدته أمه**». أخرجه البخاري ومسلم.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال ﷺ: «**العمرة إلى العمرة كفارة لما بينها، والحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة**» أخرجه البخاري ومسلم.

وقد أقسم الله تعالى بمكة أم القرى في موضعين من كتابه: ﴿**وَهَذَا الْبَلَدِ الأَمِينِ**﴾ [التين: ٣]، و: ﴿**لا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ ۝١ وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ**﴾ [البلد: ١-٢].

قال الحافظ ابن كثير في (تفسيره): «هذا قسم من الله تبارك وتعالى بمكة أم القرى في حال كون الساكن فيها حالاً، لينبه على عظمة قدرها في حال إحرام أهلها».

وفي حديث أخرجه الإمام أحمد في (مسنده) يقول ﷺ: «**صلاة في مسجدي هذا أفضل من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجدَ الحرام، وصلاة في المسجد الحرام أفضل من صلاة في مسجدي هذا بمائة صلاة**».

من خصائص مكة المكرمة أنها قبلة لأهل الأرض كلهم، وأنه يحرُمُ استقبالها واستدبارها عند قضاء الحاجة دون سائر بقاع الأرض، وأن المسجد الحرام هو أول مسجد وضع على الأرض.. قال تعالى: ﴿**إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ**﴾. ومكة هي أم القرى أو أصلها، كما أن الفاتحة هي أم الكتاب وأم القرآن، ومكة هي مثابة للناس، أي يثوبون إليها على تعاقب الأعوام من جميع الأقطار.!

ويكفي تكريماً للبلد الحرام أنه سبحانه وتعالى يضيفه إليه بقوله في سورة الحج: ﴿**وَطَهِّرْ بَيْتِيَ**﴾.

ثم يتحدث عن الحج الأكبر ويقول:

فضل الحج الأكبر:

قال ﷺ في حديث أخرجه أحمد وأبوداود: «**يوم الفطر، ويوم النحرِ، وأيام التشريق عيدنا أهلَ الإسلام وهي أيام أكل وشرب**».. فيوم الفطر، ويوم النحر يوما عيد لاجتماع أهل الأمصار. وقال ﷺ: «**يوم الحج**

الأكبر يوم النحر» رواه الترمذي. ويباهي الله سبحانه يوم عرفة بعباده الملائكة فيقول: «**انظروا إلى عبادي، أتوني شعثاً غبراً ضاحين من كل فج عميق، أشهدكم أني غفرت لهم**» رواه ابن خزيمة وابن حبان في (صحيحيهما).

تربية النبيّ ﷺ ومبعثه:

ويتحدث الإمام ابن القيِّم عن تربية الرسول ﷺ فيقول: إن أباه عبدالله توفي ورسول الله ﷺ حَمْلٌ، كما توفيت أمه بين مكة والمدينة بقرية تدعى: الأبواء، عند انصرافها من المدينة من زيارة أخواله، ولم يستكمل الرسول ﷺ إذ ذاك سبع سنين..

ويكفل عبدالمطلب بن هاشم حفيده المبارك، ثم يتوفى والرسول ﷺ ابن ثمان سنين، ويكفله عمه أبوطالب، وفي سن الثانية عشرة يخرج به عمه إلى الشام، فيراه بحيرى الراهب ويأمر عمه ألا يقدم به إلى الشام خوفاً عليه من اليهود، فيبعثه عمه مع بعض غلمانه إلى مكة.!

وحين بلغ صلوات ربي وسلامه عليه خمساً وعشرين سنة تزوج خديجة بنت خويلد رضي الله عنها وسنها أربعون، وهي أول امرأة تزوجها، وأول من مات من نسائه، وأمره جبريل عليه السلام أن يقرأ عليها السلام من

ربها.. أخرج البخاري في (صحيحه) من حديث أبي هريرة قال: أتى جبريل النبيَّ ﷺ فقال: «**يا رسول الله، هذه خديجة قد أتت معها إناء فيه إدام أو طعام أو شراب، فإذا هي أتتك فاقرأ عليها السلام من ربها ومني، وبشرها ببيت في الجنة**».

حبب الله الخلوة للنبيّ ﷺ، فكان يخلو بغار حراء يتعبد فيه الليالي، وأشرق عليه نور النبوة، وأكرمه سبحانه وتعالى برسالته لما كمل له أربعون.

ويورد الإمام ابن القيِّم بيتاً للشيخ جمال الدين يحيى الصرصري المتوفى سنة (٦٥٦هـ) تحدث فيه عن المبعث:

وأتت عليه أربعون فأشرقت شمس النبوة منه في رمضان

وكمل للرسول ﷺ من مراتب الوحي:

* الرؤيا الصادقة: فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح.

* النفث في الروع: قال ﷺ: «**إن روح القدس نفث في روعي أنه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها**». أخرجه أبونعيم في (الحلية) انظر (صحيح الجامع ٢٠٨٥).

* تمثل الوحي في هيئة البشر: ففي (صحيح مسلم) أن النبيَّ ﷺ قال: «**يا عمر، أتدري من السائل؟**» قال: الله ورسوله أعلم. قال ﷺ: «**فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم**».

* إتيان الوحي في مثل صلصلة الجرس: روى البخاري ومسلم عن عائشة رضي الله عنها أن الحارث بن هشام سأل النبيَّ ﷺ فقال: يا رسول الله، كيف يأتيك الوحي؟ فقال ﷺ: «**أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس وهو أشده علي**».

* أن يرى الملك في صورته التي خُلق عليها فيوحي إليه ما شاء الله أن يوحيه، وهذا وقع له مرتين كما ذكر الله تعالى في سورة النجم.

* كلام الله له منه إليه بلا واسطة ملك، وذلك في ليلة الإسراء والمعراج.

ثم يتحدث الإمام ابن القيِّم عن أزواج النبي ﷺ وأولاده فيقول:

أزواجه وأولاده ﷺ:

يقول الإمام ابن القيِّم: إن أول أولاد الرسول ﷺ القاسم وبه كان يُكنَّى، مات طفلاً، ثم زينب، ثم رقية، وأم كلثوم وفاطمة، ثم عبدالله، وهؤلاء كلهم من خديجة ولم يولد له من زوجة غيرها، ثم ولد له إبراهيم

بالمدينة من سريتهِ «مارية القبطية» سنة ثمان من الهجرة، ومات طفلاً قبل الفطام، وكل أولاده توفوا قبله إلا فاطمة، فإنها تأخرت بعده بستة أشهر.

وأما أزواجه ﷺ فأولاهن خديجة بنت خويلد الأسدية، تزوجها قبل النبوة ولها أربعون سنة، ولم يتزوج عليها حتى ماتت، وأولاده كلهم منها إلا إبراهيم، وهي التي آزرته على النبوة، وجاهدت معه، وواسته بنفسها ومالها، وماتت قبل الهجرة بثلاث سنين.

ثم تزوج الرسول ﷺ بعد موتها بأيام سودة بنت زمعة القرشية، ثم عائشة الصديقة بنت الصديق أبي بكر، حبيبة الرسول ﷺ، تزوجها في شوال وعمرها ست سنين، وبنى بها في شوال من السنة الأولى من الهجرة وعمرها تسع سنين، ولم يتزوج بكراً غيرها، وهي أفقه نسائه وأعلمهن.

ثم تزوج حفصة بنت عمر بن الخطاب، وزينب بنت خزيمة بن الحارث الهلالية وتوفيت بعد شهرين من زواجه بها، ثم تزوج أم سلمة هند بنت أبي أمية المخزومية وهي آخر نسائه موتاً، ثم تزوج ﷺ زينب بنت جحش من بني أسد وهي ابنة عمته أميمة، وفيها نزل قوله تعالى: ﴿**فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا**﴾، وبذلك كانت تفتخر على نساء النبيّ ﷺ وتقول: «زوجكُنَّ أهاليكن، وزوّجني الله من فوق سبع سموات». وقد ماتت في أول خلافة عمر بن الخطاب.

وتزوج ﷺ جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار، وكانت من سبايا بني المصطلق، فجاءته تستعين به على كتابتها، فأدى عنها كتابتها وتزوجها.

ثم تزوج أم حبيبة، واسمها رملة بنت أبي سفيان صخر بن حرب القرشية، تزوجها وهي ببلاد الحبشة مهاجرة، وأصدقها عنه النجاشي أربعمائة دينار، وسيقت إليه من هناك، وماتت في أيام أخيها معاوية، وتزوج صفية بنت حيي بن أخطب سيد بني النضير، ثم تزوج ميمونة بنت الحارث الهلالية، وهي آخر من تزوج بها، تزوجها بمكة في عمرة القضاء بعد أن حل منها على الصحيح.

غزوات الرسول ﷺ وسراياه:

يذكر الإمام ابن القيِّم أن غزوات الرسول ﷺ وبعوثه وسراياه كانت بعد الهجرة، فالغزوات عددها سبع وعشرون، قاتل الرسول ﷺ في تسع منها هي: بدر، وأحد، والخندق، وقريظة، والمصطلق، وخيبر، والفتح، وحنين، والطائف. وسراياه وبعوثه قريب من ستين.

والغزوات الكبار الأمهات سبع وفي شأن هذه الغزوات نزل القرآن:

* غزوة بدر وفيها نزلت سورة الأنفال.

* غزوة أحد وفيها نزل آخر سورة آل عمران.

* غزوة الخندق، وغزوة خيبر وفيهما وفي غزوة بني قريظة نزل صدر سورة الأحزاب.

* غزوة حنين وفيها نزلت آيات في سورة التوبة.

* غزوة الفتح وفيها نزلت سورة النصر.

* وسابع الغزوات غزوة تبوك وفيها نزلت آيات في سورة التوبة أيضاً.

* * *

غزوة بدر الكبرى:

أول لواء عقده ﷺ لحمزة في رمضان على سبعة أشهر من الهجرة، بعثه في ثلاثين من المهاجرين يعترض عيراً لقريش جاءت من الشام فيها أبوجهل في ثلاث مئة رجل. ثم بعث النبيّ ﷺ عبيدة بن الحارث في سرية إلى بطن رابغ في شوال في ستين من المهاجرين فلقي أباسفيان، فكان بينهم رمي، ولم يسلوا السيوف.

ثم في العام الثاني من الهجرة وفي رمضان بلغه ﷺ خبر العير المقبلة من الشام، فندب للخروج إليها، وخرج في ثلاث مئة وبضعة عشر رجلاً،

معهم فَرَسَانِ فرس للزبير بن العوام، وفرس للمقداد بن الأسود، ومعهم سبعون بعيراً، ولما بلغ رسول الله ﷺ خروج قريش استشار أصحابه، فقال سعد بن معاذ في كلام طويل: والله، لئن استعرضت بنا هذا البحر خضناه معك، وقال المقداد كلامه المشهور، فَسُرَّ ﷺ بما سمع من أصحابه وقال: «**سيروا، وأبشروا، فإن الله وعدني إحدى الطائفتين، وإني قد رأيت مصارع القوم**».

ورفع يديه، واستنصر ربه، واستنصر المسلمون الله واستغاثوه، فأوحى الله إليه أن ممدكم بألف من الملائكة مردفين.

وفرغ رسول الله ﷺ من شأن بدر والأسرى في شوال، ثم نهض بعد فراغه بسبعة أيام إلى غزوة بني سليم.

غزوة أحد:

لما قتل الله أشراف قريش ببدر رَأسَهُم أبوسفيان، فجمع لرسول ﷺ الجموع، وأقبل بهم إلى المدينة فنزل قريباً من أحد. واستعرض ﷺ الشباب، فرد من استصغره عن القتال، منهم: ابن عمر، وأسامة، وزيد بن ثابت، وعَرَابةُ بن أَوسٍ، وأجاز من رآه مطيقاً، منهم: سَمُرَةُ بن جُنْدُب، ورافعُ بنُ خَديج، ولهما خمس عشرة سنة، وخرج رسول الله ﷺ في ألف من

الصحابة واستعمل ابن أم مكتوم على الصلاة بمن بقي في المدينة، وتجهزت قريش للقتال، وهم في ثلاثة آلاف وفيهم مائتا فارس، فجعلوا على ميمنتهم خالد بن الوليد، وعلى الميسرة عكرمة بن أبي جهل.

وبدأ القتال، وكانت الغلبة في أول النهار للمسلمين فانهزم المشركون حتى انتهوا إلى نسائهم، فلما رأى الرماة الذين وضعهم رسول الله ﷺ ليحموا ظهور المسلمين انهزام المشركين تركوا مواقعهم وذهبوا في طلب الغنيمة، فكرَّ فرسان قريش على المسلمين، وأحاطوا بالمسلمين، فلما رأى الصحابة ذلك انحازوا، ووصل المشركون إلى رسول الله ﷺ فجرحوا وجهه، وكسروا رباعيته، ورموه بالحجارة، وصرخ الشيطان بأعلى صوته: إن محمداً قد قتل، فوقع ذلك في قلوب كثير من المسلمين وفرَّ أكثرهم، وكان أمر الله قدراً مقدوراً..

وأقبل رسول الله ﷺ نحو المسلمين فاجتمعوا حوله، ونهضوا معه إلى الشعب، ولما انقضت الحرب أشرف أبوسفيان وقال: أفي القوم محمد؟ فلم يجيبوه، فقال: أفيكم ابن أبي قحافة؟ فلم يجيبوه، فقال: أفي القوم ابن الخطاب؟ فلم يجيبوه، فقال أبوسفيان: إن هؤلاء قتلوا، فلو كانوا أحياء لأجابوا، فلم يملك عمر نفسه، فقال: كذبت يا عدو الله أبقى الله تعالى لك ما يخزيك ويسؤوك.

قال أبوسفيان: اعلُ هبل، اعلُ هبل، فقال النبيّ ﷺ: «**أجيبوه**»، قالوا: ما نقول؟ قال ﷺ: «**قولوا: الله أعلى وأجل**»، قال أبوسفيان: إن لنا العزى ولا عزى لكم. فقال النبيّ ﷺ: «**أجيبوه**». قالوا: ما نقول؟ قال: «**قولوا: الله مولانا ولا مولى لكم**». قال أبوسفيان: يوم بيوم بدر، والحرب سجال. فأجابه عمر: لا سواء، قتلانا في الجنة، وقتلاكم في النار.

ملحوظة: يخلص الإمام ابن القيِّم إلى تلخيص الدروس المستفادة من غزوة أحد ومن ذلك:

* أن الجهاد يلزم بالشروع فيه، فمن لبس لأْمَتَهُ، وشرع في أسبابه ليس له أن يرجع.

* وأنه لا يجب على المسلمين الخروج إذا طرق العدو ديارهم.

* وأنه لا يأذن لمن لا يطيق القتال من الصبيان.

* وأنه يجوز الغزو بالنساء.

* وأنه يجوز الانغماس في العدو.

* وأنه يجوز الدعاء بالشهادة وتمنيها.

* وأن الشهيد لا يغسل ولا يصلى عليه، وإذا كان جنباً غسّل كحنظلة.

* وأن الشهداء يدفنون في مصارعهم.

* وأن حكمة الله جرت بأن الرسل وأتباعهم يُدَالون مرة، ويُدَال عليهم أخرى لكن تكون العاقبة لهم.

* وأنه سبحانه هيأ لعباده منازل لا تبلغها أعمالهم ولا يبلغونها إلا بالبلاء.

* وأن النصر منوط بالطاعة.

ولما انقضت الحرب، وانكفأ المشركون ظن المسلمون أنهم قصدوا المدينة، فشق ذلك عليهم، فقال ﷺ لعلي: «**اخرج في إثر القوم، فانظر ماذا يصنعون وماذا يريدون، فإن هم جنَّبوا وامتطوا الإبل فإنهم يريدون مكة، وإن ركبوا الخيل وساقوا الإبل، فإنهم يريدون المدينة، فوالذي نفسي بيده لئن أرادها لأسيرن إليهم، ثم لأناجزنهم فيها**».

فخرج علي في آثارهم، فوجدهم توجهوا إلى مكة، ولما كانوا في بعض الطريق تلاوموا فيما بينهم وقال بعضهم لبعض: لقد أصبتم شوكتهم ثم تركتموهم، فارجعوا حتى نستأصلهم، فبلغ ذلك النبيَّ ﷺ فنادى في الناس وندبهم إلى المسير للقاء عدوهم وقال: «**لا يخرج معنا إلا من شهد القتال**». فاستجاب له المسلمون على ما بهم من القرح الشديد وقالوا: سمعاً وطاعة، وأقبل معبد الخزاعي إلى رسول الله ﷺ فأسلم، فأمره ﷺ أن يلحق بأبي سفيان فيخذله، فلحق بالروحاء، ولم يعلمه بإسلامه وقال لأبي

سفيان: إن محمداً وأصحابه قد خرجوا لقتالكم في جمع لم يخرجوا مثله، فأرى أن ترتحل إلى مكة، ففعل.

ولقي أبوسفيان بعض المشركين يريد المدينة فقال له: أبلغ محمداً أنا قد أجمعنا الكرة لنستأصله وأصحابه، فلما بلغهم قالوا: ﴿**فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ**﴾ [آل عمران: ١٧٤]. ورجع رسول الله ﷺ إلى المدينة، وكانت وقعة أحد في شوال سنة ثلاث.

غزوة خيبر:

لما قدم رسولُ الله ﷺ المدينة من الحديبية مكث بها عشرين ليلة، ثم خرج غازياً إلى خيبر وكان الله وعده إياها وهو بالحديبية، واستخلف على المدينة سِباعَ بن عُرْفُطَة، ولما قدم الرسولُ ﷺ خيبر، خرج أهل خيبر بمساحيهم ومكاتلهم إلى أرضهم، فلما رأوا الجيش قالوا: محمد والله، محمد والخميس، ثم رجعوا هاربين إلى حصونهم، فقال ﷺ: «**الله أكبر، خربت خيبر، إنّا إذا نزلنا بساحة قوم، فساء صباح المنذرين**». وأعطى علياً الراية، وجاهد المسلمون.

ثم صالحه يهود خيبر على أن يجلوا من خيبر ولهم ما حملت ركابهم، وله الصفراء والبيضاء، واشترط أن من كتم أو غيَّب فلا ذمة له ولا عهد،

فغيّبوا مسكاً فيه مال وحلي لحيي بن أخطب، وسبى رسولُ الله ﷺ صفية، وعرض عليها الإسلام فأسلمت فأعتقها، وجعل عتقها صداقها، وقسم خيبر على ستة وثلاثين سهماً، كل سهم مائة سهم، فكان له وللمسلمين النصف، والنصف الآخر لنوابه، وما ينزل به من أمور المسلمين.

* * *

غزوة الفتح العظيم:

فيها أعز الله دينه ورسوله وجنده وحرمه الأمين، إن ذلك الفتح استبشر به أهل السماء، ودخل الناس به في دين الله أفواجاً.

خرج له رسولُ الله ﷺ سنة ثمان لعشر مضين من رمضان.

* * *

هديه ﷺ في الأسارى:

كان ﷺ يمن على بعضهم، ويقتل بعضهم، ويفادي بعضهم بالمال وبعضهم بأسرى المسلمين، فعل ذلك كله بحسب المصلحة، واستأذنه الأنصار أن يتركوا لعمه العباس فداءه فقال: «**لا تدعوا منه درهماً**»، ورد سبي هوازن عليهم بعد القسمة، وذكر أحمد عن ابن عباس أن بعضهم لم

يكن له مال، فجعل رسولُ اللهِ ﷺ فداءهم أن يعلّموا أولاد الأنصار الكتابة، فدل هذا على جواز الفداء بالعمل.

وكان ﷺ يمنع التفريق في السبي بين الوالدة وولدها، ويعطي أهل البيت جميعاً كراهة أن يفرق بينهم، وكان هديه عتق عبيد المشركين إذا خرجوا إلى المسلمين وأسلموا، وكان من هديه أن من أسلم على شيء في يده فهو له، ولم يكن يرد على المسلمين أعيان أموالهم التي أخذها الكفار منهم قهراً بعد إسلامهم.

هديه ﷺ في الوضوء والصلاة:

ثم يحدثنا العلامة ابن قيِّم الجوزية عن هديه ﷺ في العبادات فيبدأ بهديه ﷺ في الوضوء.. يقول: كان ﷺ يتوضأ لكل صلاة في غالب أحيانه، وربما صلى ﷺ بوضوء واحد. روى مسلم من حديث بريدة بن الحصيب أنه ﷺ صلى الصلوات يوم الفتح بوضوء واحد، ومسح على خفيه.

فقال عمر: لقد صنعت اليوم شيئاً لم تكن تصنعه.

فقال ﷺ: «**عمداً صنعته يا عمر.!**».

وكان ﷺ يتمضمض ويستنشق تارة بغرفة، وتارة بغرفتين، وتارة بثلاث، وكان يَصِلُ بين المضمضمة والاستنشاق، فيأخذ نصف الغرفة لفمه، ونصفها لأنفه.

وكان يستنشق بيده اليمنى، ويستنثر باليسرى، وكان يمسح رأسه كله، وتارة يُقبِلُ بيديه ويدبر.

وكان يقول بعد الوضوء: «**أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله**» رواه مسلم عن عمر رضي الله عنه.

ولم يكن رسولُ الله ﷺ يعتاد تنشيف أعضائه بعد الوضوء، ولا صح عنه في ذلك حديث البتة.

وكان ﷺ يمسح على خفيه في الحضر والسفر حتى توفي، ووقّت للمقيم يوماً وليلة، وللمسافر ثلاثة أيام ولياليهن، وكان يمسح ظاهر الخفين، وعلى الجوربين والنعلين وعلى العمامة.

وكان ﷺ يتيمم بضربة واحدة للوجه والكفين. وكان يتيمم بالأرض التي يصلي عليها، ويقول: «**حيثما أَدْرَكَتْ رجلاً من أمتي الصلاةُ، فعنده مسجده وطَهُوره**» رواه أحمد في (مسنده).

كان ﷺ حين يقوم إلى الصلاة يقول: «**الله أكبر**»، وهذا دأبه في إحرامه ولا يزيد عن ذلك.

تنبيه: إذن ما يزعمه البعض أحياناً من التلفظ بالنية والقول: أصلي لله صلاة كذا مستقبل القبلة، والقول: أداء أو قضاءً لم ينقل عن رسول الله ﷺ ولا عن أحد من أصحابه، فلا نتمسك به ونظنه من السنة.

وكان ﷺ يرفع يديه مع تكبيرة الإحرام ممدودتي الأصابع مستقبلاً بهما القبلة إلى فروع أذنيه، ثم يضع اليمنى على ظهر اليسرى فوق الرسغ والساعد.

وكان يستفتح الصلاة بأدعية كثيرة منها: «**وجَّهتُ وجهيَ للذي فطر السموات والأرض حنيفاً مسلماً وما أنا من المشركين، إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين، لا شريك له، وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين**».

ومنها: «**اللهم باعد بيني وبين خطاياي كما باعدت بين المشرق والمغرب، اللهم اغسلني من خطاياي بالماء والثلج والبرد، اللهم نقني من الذنوب والخطايا كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس**». رواه البخاري ومسلم.

بعد ذلك كان النبي ﷺ يقول: «**أعوذ بالله من الشيطان الرجيم**»، ثم يقرأ الفاتحة، فإذا فرغ من قراءة الفاتحة قال: «**آمين**»..

* * *

هديه ﷺ في قيام الليل:

لم يكن ﷺ يدع صلاة الليل حضراً ولا سفراً. وكان يقوم بالليل بإحدى عشرة ركعة، وكان إذا استيقظ من الليل بدأ بالسواك، ثم يذكر الله تعالى ويقول: «**لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، الحمد لله، وسبحان الله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم**» وأخبر أنه من قال هذا ثم قال: «**اللهم اغفر لي -أو دعا بدعاء خير- استجيب له، فإن توضأ وصلى، قبلت صلاته**» رواه البخاري.

وكان إذا انتبه من نومه قال: «**الحمد لله الذي أحيانا بعدما أماتنا وإليه النشور**». ثم يتسوك، ثم يتطهر، ثم يصلي ركعتين خفيفتين.

وكان ﷺ يصلي مثنى مثنى، ثم يوتر بثلاث لا فصل فيهن كما روى أحمد.

وكان ﷺ يقرأ في الوتر بـ ﴿سَبِّحِ﴾، و﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾، و﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾، فإذا سلّم قال: «**سبحان الملك القدوس**» ثلاث مرات.

* * *

صلاة الجمعة وخصائص يوم الجمعة:

قال ﷺ: «**خير يوم طلعت عليه الشمس يوم الجمعة، فيه خلق آدم، وفيه أدخل الجنة، وفيه أخرج منها، ولا تقوم الساعة إلا في يوم الجمعة**» رواه مسلم.

وكان ﷺ يعظم يوم الجمعة، ويخصه بخصائص وعبادات دون غيره من الأيام منها:

أنه يقرأ في فجره بسورتي السجدة والإنسان.

استحباب كثرة الصلاة على النبيِّ ﷺ.

الاغتسال في يوم الجمعة، مع الطيب والسواك، والتبكير إلى الصلاة والاشتغال بذكر الله تعالى والصلاة إلى خروج الإمام، والإنصات للخطبة، وقراءة سورة الكهف.

وأمر رسولُ الله ﷺ من صلى الجمعة أن يصلي بعدها أربعاً في المسجد أو في بيته ركعتين.

* * *

هديه ﷺ في صلاة العيدين:

كان ﷺ يصلي العيدين في المصلى، وكان يلبس أجمل ثيابه، ويأكل في عيد الفطر قبل خروجه تمرات، ويأكلهن وتراً، أما في عيد الأضحى فكان لا يطعم حتى يرجع من المصلى، فيأكل من أضحيته، وكان يغتسل للعيدين.. ويؤخر صلاة عيد الفطر ويعجل صلاة الأضحى، وكان ﷺ يصلي بغير أذان ولا إقامة ولا قول: الصلاة جامعة، ولم يكن يصلي وأصحابه قبل صلاة العيد ولا بعدها، وكان يبدأ الصلاة قبل الخطبة، يصلي ركعتين يكبر في الأول سبع تكبيرات متوالية، بين كل تكبيرتين سكتة يسيرة، وإذا أتم التكبير أخذ في القراءة، وفي الركعة الثانية يكبر خمس تكبيرات متوالية، ثم يأخذ في القراءة.

في الركعة الأولى كان ﷺ يقرأ الفاتحة ثم سورة (ق) وفي الثانية (اقتربت الساعة) (القمر)، وربما قرأ فيهما بـ(سبح) و(الغاشية).

وكان ﷺ يكبر من صلاة الفجر يوم عرفة إلى العصر من آخر أيام التشريق: **الله أكبر، الله أكبر، لا إله إلا الله، والله أكبر، الله أكبر، ولله الحمد..**

* * *

هديه ﷺ في قراءة القرآن:

كان ﷺ يستعيذ في أول القراءة قائلاً: «**أعوذ بالله من الشيطان الرجيم**» أو: «**اللهم إني أعوذ بك من الشيطان الرجيم من همزه ونفخه ونفثه**».

وكان يحب سماع القرآن من غيره، وكانت قراءته للقرآن ترتيلاً حرفاً حرفاً، ويقطع قراءته آية آية، ويمد عند حروف المد.. وكان يتغنى به، ويُرَجِّعُ صوته أحياناً.

وكان يقرأ قائماً وقاعداً ومضطجعاً ومتوضئاً ومحدثاً ولم يكن يمنعه من قراءته إلا الجنابة.

واستمع ليلة لقراءة أبي موسى الأشعري، فلما أخبره بذلك قال أبوموسى للنبيّ ﷺ: لو علمت أنك تسمعه لحبّرته لك تحبيراً، أي: لحسنته لك تحسيناً.

* * *

هديه ﷺ في الزكاة:

كان ﷺ يراعي في الزكاة مصلحة أرباب الأموال، ومصلحة المساكين، فالزكاة جعلها الله سبحانه وتعالى مطهرة للمال ولصاحبه، وجعلها سبحانه في أربعة أصناف من المال:

أحدها: الزرع والثمار.

والثاني: بهيمة الأنعام: الإبل والبقر والغنم.

والثالث: الجوهران اللذان بهما قوام العالم؛ الذهب والفضة.

والرابع: أموال التجارة على اختلاف أنواعها..

أوجب الله تعالى الزكاة في كل عام، وجعل حول الثمار والزورع عند كمالها واستوائها.

واقتضت حكمته سبحانه أن جعل في الأموال قدراً يحتمل المواساة ولا يجحف بها، ويكفي المساكين.

والله سبحانه تولى قسمة الصدقة بنفسه، وجزأها ثمانية أجزاء يجمعها صنفان:

أحدهما: من يأخذ لحاجة، فيأخذ بحسب شدة الحاجة أو ضعفها، وكثرتها أو قِلتها، وهم الفقراء والمساكين، وفي الرقاب، وابن السبيل.

والثاني: من يأخذ لمنفعته وهم العاملون عليها، والمؤلفة قلوبهم، والغارمون لإصلاح ذات البين، والغزاة في سبيل الله، فإن لم يكن الآخذ محتاجاً، ولا منفعة فيه للمسلمين، فلا سهم له في الزكاة.

وكان من هديه تفريقها على المستحقين في بلد المال، وما فضل عنهم منها حمل إليه ففرقه، وكذلك كان يبعث سعاته إلى البوادي، وأمر معاذاً أن يأخذ الصدقة من أغنياء أهل اليمن ويعطيها فقراءهم.

وكان إذا جاء الرجل بالزكاة دعا له، فتارة يقول: «**اللهم بارك فيه وفي إبله**»، وتارة يقول: «**اللهم صل عليه**»، وكان ينهى المتصدق أن يشتري صدقته، وكان يبيح للغني أن يأكل منها إذا أهداها إليه الفقير.

وكان أحياناً يستدين لمصالح المسلمين على الصدقة، وكان يَسِمُ إبل الصدقة بيده، وإذا عراه أمر استسلف الصدقة من أربابها، كما استسلف من العباس صدقة عامين.

وكان من هديه إخراج زكاة الفطر قبل الخروج للعيد.

وفي (سنن) أبي داود وابن ماجه أن رسول الله ﷺ قال: «**منْ أدَّاها قبل الصلاة فهي زكاةٌ مقبولةٌ، ومن أدَّاها بعد الصلاة، فهي صدقةٌ منَ الصدقات**».

وكان من هديه ﷺ تخصيص المساكين بزكاة الفطر، ولم يكن يقسمها على الأصناف الثمانية، ولا فعله أحد من الصحابة، ولا من بعدهم.

* * *

هديه ﷺ في الصيام:

يقول الإمام ابن القيِّم في فضل الصيام: هو لجام المتقين، وجُنَّةُ المحاربين، ورياضة الأبرار والمقربين، وهو لرب العالمين من بين الأعمال، فإن الصائم يترك شهوته، أي يترك محبوبات النفس إيثاراً لمحبة الله، وهو سرٌّ بين العبد وربه، إذ العباد قد يطلعون على ترك المفطرات الظاهرة، وأما كونه ترك ذلك لأجل معبوده، فأمر لا يطلع عليه بشر، وذلك حقيقة الصوم.

وللصوم تأثير عجيب في حفظ الجوارح الظاهرة والقوى الباطنة، فالصوم يحفظ على القلب والجوارح صحتها، ويعيد إليها ما استلبته منها أيدي الشهوات، فهو من أكبر العون على التقوى، قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ**﴾ [**البقرة**: ١٨٣].

وأمر ﷺ من اشتدت شهوته للنكاح، ولا قدرة له عليه بالصوم، وجعله وجاءَ هذه الشهوة. عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**يا معشر الشباب، من استطاع منكم الباءة فليتزوج، فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء**» رواه البخاري ومسلم.

وقد تأخر فرض الصيام إلى ما بعد الهجرة، حيث فرض في السنة الثانية من الهجرة، وفرض أولاً على التخيير بينه وبين أن يطعم كل يوم مسكيناً، ثم تحتم الصوم، وجعل الإطعام للشيخ الكبير والمرأة إذا لم يطيقا الصيام، ورخص للمريض والمسافر أن يفطرا ويقضيا، وللحامل والمرضع إذا خافتا على نفسيهما كذلك، فإن خافتا على ولديهما زادتا مع القضاء إطعام مسكين لكل يوم.

وكان من هديه في شهر رمضان الإكثار من أنواع العبادة، وكان جبريل عليه السلام يدارسه القرآن في رمضان، وكان يكثر فيه من الصدقة والإحسان وتلاوة القرآن، والصلاة، والذكر، والاعتكاف..

وكان من هديه أن لا يدخل في صوم رمضان إلا برؤية محققة أو بشهادة شاهد، فإن لم يكن رؤية ولا شهادة أكمل عدة شعبان ثلاثين.

وكان من هديه الخروج منه بشهادة اثنين، وإذا شهد شاهدان برؤيته بعد خروج وقت العيد أفطر وأمرهم بالفطر، وصلى العيد من الغد في وقتها.

وكان يعجل الفطر، ويؤخر السحور. وكان إفطاره على التمر فإن لم يجد فعلى الماء، ونهى الصائم عن الرفث والصخب والسباب. عن أبي هريرة

رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ: «**إذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث ولا يصخب، فإن سابه أحد أو قاتله فليقل: إني صائم**».

وكان ﷺ يدركه الفجر وهو جنب من أهله فيغتسل بعد الفجر ويصوم، وكان يقبّل بعض أزواجه وهو صائم في رمضان، وكان يستاك وهو صائم، ويصب الماء على رأسه وهو صائم، ويستنشق ويتمضمض وهو صائم.

وكان ﷺ يتحرى صوم الإثنين والخميس، وصوم أيام البيض، وصوم يوم عاشوراء.. وصوم يوم عرفة وقد قال ﷺ: «**صيامه يكفر السنة الماضية والباقية**». رواه مسلم.

* * *

هديه ﷺ في الحج والاعتمار:

اعتمر ﷺ بعد الهجرة أربع مرات كلهن في ذي القعدة:

الأولى: عمرة الحديبية سنة ست، فصده المشركون عن البيت الحرام، فنحر وحلق.

والثانية: عمرة القضاء في العام المقبل دخلها فأقام بها ثلاثاً ثم خرج.

والثالثة: عمرته التي قرنها مع حجته.

والرابعة: عمرته من الجِعْرانة.

ولم يعتمر ﷺ خارجاً من مكة. وكان اعتماره دائماً في أشهر الحج مخالفاً للمشركين الذين كانوا يكرهون الاعتمار فيها.

ولم يحج ﷺ بعد الهجرة إلا حجة واحدة سنة عشر، فالحج تأخر فرضه إلى سنة تسع أو عشر، ولما عزم الرسول ﷺ على الحج أعلم الناس أنه حاج، فتجهزوا للخروج معه، وسمع بذلك من حول المدينة فقدموا يريدون الحج مع رسولِ الله ﷺ، ووافاه في الطريق خلائق لا يحصون، وخرج من المدينة نهاراً بعد الظهر بعد أن صلّى بها الظهر أربعاً، وخطبهم فعلمهم الإحرام وواجباته وسننه، فصلى الظهر، ثم ترجل وادهن، ولبس إزاره ورداءه، وخرج فنزل بذي الحليفة فصلى بها العصر ركعتين، ثم بات بها وصلى بها المغرب والعشاء، والصبح والظهر فصلى بها خمس صلوات.

وكان نساؤه كلهن معه وطاف عليهن تلك الليلة، فلما أراد الإحرام اغتسل غسلاً ثانياً، ثم طيبته عائشة بيدها بالمسك، ثم لبس إزاره ورداءه وصلى الظهر ركعتين، ثم أهل بالحج والعمرة من مصلاه، ثم ركب ناقته،

فأهلَّ أيضاً، ثم أهلَّ أيضاً لما استقلت به على البيداء، ثم لبى فقال: «**لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك**»، وأمر أصحابه أن يرفعوا أصواتهم بالتلبية، وخيّرهم ﷺ عند الإحرام بين الأنساك الثلاثة، ثم نَدَبهم عند دنوِّهم من مكة إلى فسخ الحج والقِران إلى العمرة لمن لم يكن معه هدي، ثم حتَّم ذلك عليهم عند المروة، وولدت أسماءُ بنت عميس محمد بن أبي بكر، فأمرها أن تغتسل وتستثفر بثوب وتحرم وتهل. ثم سار ﷺ وهو يلبي والناس معه، حتى إذا كان بالأبواء أهدى إليه عجز حمار وحش فرده. وقال لصاحبه: «**إنا لم نرده عليك إلا أنا حرم**».

وفي سَرَفٍ قال لأصحابه: «**من لم يكن معه هدي فأحب أن يجعلها عمرة فليفعل، ومن كان معه هدي فلا**»، فلما كان بمكة أمر أمراً حتماً من لا هدي معه أن يجعلها عمرة ويحل من إحرامه، ومن معه هدي أن يقيم على إحرامه.

وبات الرسولُ ﷺ بذي طوى ليلة الأحد لأربع خلون من ذي الحجة، وصلى بها الصبح، ثم اغتسل من يومه، ونهض إلى مكة فدخلها من أعلاها، وسار إلى المسجد في الضحى.

ولما دخل المسجد استقبل الحَجَر واستلمه، ثم أخذ عن يمينه وجعل البيت عن يساره، ثم طاف حول البيت ورمل في طوافه هذا الثلاثة الأشواط الأُول.. فلما فرغ من طوافه جاء إلى خلف المقام، فقرأ: ﴿**وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى**﴾، فركع ركعتين، وقرأ الفاتحة وبسورة الإخلاص، ولما فرغ من صلاته أقبل على الحَجَر فاستلمه، ثم خرج إلى الصفا وقرأ: ﴿**إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ..**﴾، ثم رقى عليه حتى رأى البيت، فاستقبل القبلة، فوحد الله وكبره، وقال: «**لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، لا إله إلا الله وحده أنجز وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده**». ثم نزل إلى المروة يمشي، ثم رقى على المروة واستقبل البيت، وكبّر الله وحده، وفعل كما فعل على الصفا وأمر كل من لا هدي له أن يحل، وأن يبقى كذلك إلى يوم التروية، ودعا للمحلقين بالمغفرة ثلاثاً وللمقصرين مرة.

وأقام أربعة أيام يقصر الصلاة، فلما كان يوم الخميس ضُحى توجه بمن معه إلى منى وأحرموا ومكة خلف ظهورهم، فلما وصل إلى منى نزل بها الظهر والعصر وبات فيها، فلما طلعت الشمس سار إلى عرفة، ونزل في نمرة حتى إذا زالت الشمس أمر بناقته القصواء فَرُحِلَتْ، ثم سار إلى بطن الوادي من أرض عُرَنَة، فخطب الناس وهو على راحلته خطبة عظيمة قرر فيها قواعد

الإسلام، وهدم فيها قواعد الشرك والجاهلية، وقرر فيها تحريم الدماء والأموال والأعراض وأبطل الربا، وأوصى بالنساء خيراً، وأوصى بالاعتصام بكتاب الله، وأمرهم أن يبلغ شاهدهم غائبهم وخطب خطبة واحدة، فلما أتمها أمر بلالاً فأذن ثم أقام فصلى الظهر ركعتين، ثم أقام فصلى العصر ركعتين ومعه أهل مكة، فلما فرغ من صلاته ركب حتى أتى الموقف، واستقبل القبلة فأخذ في الدعاء والتضرع والابتهال إلى غروب الشمس.

وكان أكثر دعاء النبيّ ﷺ يوم عرفة: «**لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد، بيده الخير، وهو على كل شيء قدير**» رواه أحمد.

فلما غربت الشمس واستحكم غروبها، أفاض من عرفة، وأردف أسامة ابن زيد خلفه، وأفاض بالسكينة وضم إليه زمام ناقته.. ثم نزل وتوضأ، فقال له أسامة: الصلاة يا رسول الله.. قال ﷺ: «**المصلى أمامك**». ثم أتى المزدلفة فتوضأ، ثم أذن المؤذن، ثم أقام، فصلى المغرب قبل حط الرحال، فلما حطوا رحالهم أمر فأقيمت الصلاة، ثم صلى العشاء بإقامة بلا أذان.. ثم نام حتى الصباح.

وأمر أهله برمي الجمرة بعد طلوع الشمس.

ملحوظة: هنا ينكر الإمام ابن القيِّم الحديث الذي فيه أن أم سلمة رمت قبل الفجر.! ويؤكد الإمام ابن القيِّم أنه يجوز الرمي قبل طلوع الشمس لعذر من مرض أو كبر وأما القادر الصحيح فلا يجوز له ذلك.

حين طلع الفجر صلى الرسول ﷺ الصلاة أول الوقت، ثم ركب حتى المشعر الحرام، فاستقبل القبلة وأخذ في الدعاء والتضرع والتكبير والتهليل والذكر حتى أسفر جداً، فأعلم الناس أن مزدلفة كلها موقف، ثم سار وأمر ابن عباس بأن يلقط سبع حصيات، حصى الجمار، وجعل الرسولُ ينفضهن من كفه ويقول: «**أمثال هؤلاء فارموا، وإياكم والغلو في الدين، فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو في الدين**».

ولما وصل ﷺ منى أتى جمرة العقبة، فوقف في أسفل الوادي واستقبل الجمرة وهو على راحلته، فرماها راكباً بعد طلوع الشمس، واحدة بعد واحدة يكبّر مع كل حصاة، وحينئذ قطع التلبية وبلال وأسامة معه، أحدهما آخذ بخطام ناقته، والآخر يظلّه بثوبه من الحر.

ثم رجع إلى منى، فخطب خطبة بليغة فيها حرمة يوم النحر، وحرمة مكة على جميع البلاد، وأمر بالسمع والطاعة لمن قادهم بكتاب الله، وأمر الناس أن يأخذوا مناسكهم عنه وقال: «**لعلِّي لا أحج بعد عامي هذا**».

وعلّمهم ﷺ مناسكهم، وأنزل المهاجرين والأنصار منازلهم، وأمر الناس ألا يرجعوا بعده كفاراً يضرب بعضهم رقاب بعض، وأمر بالتبليغ عنه، وأخبر أنه «**رُبَّ مُبَلَّغ أوعى من سامع**»، وقال في خطبته: «**اعبدوا ربكم، وصلوا خمسكم، وصوموا شهركم، وأطيعوا ذا أمركم تدخلوا جنة ربكم**»، وودع الناس، فقالوا: حجة الوداع.

ثم انصرف إلى المنحر بمنى، فنحر ثلاثاً وستين بدنة بيده، ثم أمسك وأمر علياً بأن ينحر ما بقي من المائة، وأن يتصدق بجلالها وجلودها ولحومها في المساكين، وأعلم الرسولُ ﷺ الناس أن منى كلها منحر، وأن فجاج مكة طريق ومنحر. فلما أكمل نحره، استدعى الحلاق، فحلق رأسه، ودعا للمحلقين بالمغفرة ثلاثاً، وللمقصرين مرة.

ثم أفاض إلى مكة قبل الظهر راكباً، فطاف طواف الإفاضة، ثم أتى زمزم فشرب وهو قائم، ثم رجع إلى منى فبات بها، فلما أصبح انتظر زوال الشمس فلما زالت الشمس مشى إلى الجمار، فبدأ بالجمرة الأولى فرماها بسبع حصيات واحدة بعد واحدة يقول مع كل حصاة: «**الله أكبر**»، ثم تقدم إلى الجمرة الوسطى فرماها كذلك، وتقدم إلى جمرة العقبة، فاستبطن الوادي، ورماها بسبع حصيات كذلك، ثم رجع، وهنا فرغ الرمي.

تنبيه: ويعلق الإمام ابن القيِّم على حجة الوداع للرسول الأعظم ﷺ فيقول: إن حجته تضمنت ست وقفات للدعاء: على الصفا، وعلى المروة، وبعرفة، وبمزدلفة، وعند الجمرة الأولى، وعند الجمرة الثانية.

* * *

تعليق: الحقيقة أن العلامة الإمام ابن القيِّم لا يغادر الحديث عن حجة الوداع للرسول ﷺ حتى يناقش بعض الآراء المطروحة على بساط البحث عن دخول البيت وهل هو من سنن الحج أم لا؟

يؤكد الإمام ابن القيِّم أن دخول البيت ليس من سنن الحج، فالرسول ﷺ لم يدخله في الحج أو العمرة، بل دخله عام الفتح.

* * *

هديه ﷺ في الذكر:

كان ﷺ أكمل خلق الله ذكراً لله عز وجل، بل إن كلامه ذاته كان من ذكر الله وما والاه، وكل ما يصدر عنه من أقوال كأمر ونهي وتشريع للأمة، وإخبار عن أسمائه تعالى وصفاته، وأحكامه وأفعاله، ووعده ووعيده، كل ذلك كان ذكراً له سبحانه.

فالرسول ﷺ كان يذكر الله ويثني عليه بآلائه ويمجده ويسبحه ويحمده، ويسأله ويدعوه، ويرغب في الله ويرهبه، وكان يذكر الله تعالى قائماً وقاعداً وعلى جنبه، وفي مشيه وركوبه وسيره ونزوله، وظعنه وإقامته.

وكان يقول إذا استيقظ من نومه: «**الحمد لله الذي أحيانا بعدما أماتنا وإليه النشور**» أخرجه البخاري ومسلم.

وكانت له أدعية إذا استفتح الصلاة، وإذا خرج من بيته، وإذا دخل المسجد، وإذا لبس الثوب، وإذا دخل البيت، أو الخلاء، أو توضأ أو أذّن للصلاة، أو رأى الهلال، أو أكل، أو عطس..

* * *

هديه ﷺ عند دخوله منزله:

كان ﷺ إذا دخل منزله بدأ بالسواك، ثم يسأل عن أهل بيته، أو يسألهم: «**هل عندكم من طعام؟**».

وثبت عنه ﷺ أن رجلاً سلّم عليه وهو يبول، فلم يرد عليه، وأخبر أنه سبحانه وتعالى يمقت الحديث على الغائط، ولم يؤثر عنه أنه ﷺ استقبل القبلة أو استدبرها بغائط أو بول.. كما أنه نهى عن ذلك.

* * *

هديه ﷺ في السلام والاستئذان:

قال ﷺ: «**إن أفضل الإسلام أن تطعم الطعام، وتقرئ السلام على من عرفت ومن لم تعرف**» أخرجه البخاري ومسلم.

وقال ﷺ: «**إن آدم لما خلقه الله قال له: اذهب إلى أولئك النفر من الملائكة فسلّم عليهم، واستمع ما يحيُّونك به، فإنها تحيتك وتحية ذريتك، فقال: السلام عليكم. فقالوا: السلام عليكم ورحمة الله، فزادوه: ورحمة الله**» رواه البخاري.

وبذل السلام للعالم يتضمن التواضع وعدم الكبرياء، وعن أسماء بنت يزيد قالت: مر علينا النبيّ ﷺ في نسوة، فسلّم علينا.

وقال ﷺ: «**يسلّم الصغير على الكبير، والمار على القاعد، والراكب على الماشي، والقليل على الكثير**» أخرجه البخاري.

وقال ﷺ: «**إن أولى الناس بالله من بدأهم بالسلام**» رواه أحمد وأبوداود.

وقال ﷺ: «**إذا قعد أحدكم فليسلّم، وإذا قام فليسلّم، فليست الأولى بأحق من الآخرة**» رواه أبوداود والترمذي.

ومن هديه ﷺ أن الداخل إلى المسجد يبتدئ بركعتين، ثم يجيء فيسلّم، فتكون تحية المسجد قبل تحية أهله، فإن تلك حق الله، والسلام عليهم حق لهم، وحق الله تعالى في مثل هذا أولى بالتقديم.

تنبيه: يؤكد العلامة الإمام ابن القيِّم على الداخل إلى المسجد عليه ثلاث تحيات مترتبة:

أحدها: أن يقول عند دخوله المسجد: بسم الله والصلاة والسلام على رسولِ الله.

ثانيها: أن يصلي تحية للمسجد.

ثالثها: أن يسلم على القوم.

وكان من هديه ﷺ أن يسلّم ثلاثاً.. كما في البخاري..

سؤال لكن ما هو الحال مع اليهود والنصارى.. أهل الكتاب؟

في صحيح مسلم أنه ﷺ قال: «**لا تبدؤوا اليهود ولا النصارى بالسلام، وإذا لقيتم أحدهم في طريق، فاضطروه إلى أضيقه**».

وثبت عنه ﷺ أنه مرعلى مجلس فيه أخلاط من المسلمين والمشركين، فسلّم عليهم، وكتب إلى هرقل وغيره بـ: «**السلام على من اتبع الهدى**».

وقال ﷺ: «**الاستئذان ثلاث، فإن أُذن لك، وإلا فارجع**» رواه البخاري ومسلم.

واستأذن عليه رجل فقال: أألج؟!

فقال ﷺ لرجل: «**اخرج إلى هذا فعلّمه الاستئذان**»، فقال له: «**قل السلام عليكم أأدخل؟**» رواه أبوداود.

ومن هديه ﷺ أن المستأذن إذا قيل له: من أنت؟

يقول: فلان ابن فلان، أو يذكر كنيته ولا يقول: أنا.

وصح عن الرسول ﷺ التسليم قبل الاستئذان فعلاً وتعليماً..

أما الاستئذان الذي أمر الله به من لم يبلغ الحلم من العورات الثلاث: قبل الفجر، ووقت الظهيرة، وعند النوم.. وهو الوارد في قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلاثَ مَرَّاتٍ مِّن قَبْلِ صَلاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ الظَّهِيرَةِ وَمِنْ بَعْدِ صَلاةِ الْعِشَاءِ ثَلاثُ عَوْرَاتٍ لَّكُمْ**﴾ [النور: ٥٨]، فالمقصود من هذه الآية كما يقول ابن عباس: إن الله حكيم رؤوف بالمؤمنين يحب الستر، وكان الناس ليس لبيوتهم ستور ولا حجال فربما دخل الخادم أو الولد، أو يتيمة الرجل، والرجل على أهله، فأمرهم الله بالاستئذان في تلك العورات، فجاءهم الله تعالى بالستور والخير.

هديه ﷺ في أذكار السفر وآدابه:

قال ﷺ: «**إذا همَّ أحدكم بالأمر، فليركع ركعتين من غير الفريضة ثم ليقل: اللهم إني أستخيرك بعلمك، وأستقدرك بقدرتك، وأسألك من فضلك العظيم، فإنك تقدر ولا أقدر، وتعلم ولا أعلم، وأنت علام الغيوب، اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر خير لي في ديني ومعاشي وعاجل أمري وآجله، فاقدره لي ويسره لي، وإن كنتَ تعلمه شراً لي في ديني ومعاشي، وعاجل أمري وآجله، فاصرفه عني واصرفني عنه، واقدر لي الخير حيث كان، ثم رضني به**» قال: ويسمي حاجته. رواه البخاري.

وبقوله هذا عوّضنا الرسول ﷺ عن التطيّر والتنجيم، واختيار الطالع، فقوله ودعاؤه كله توحيد وتوكلٌ على الله سبحانه وتعالى، وسؤال للذي لا يأتي بالحسنات إلا هو، ولا يصرف السيئات إلا هو..!

وقال ﷺ: «**إن من سعادة ابن آدم استخارة الله والرضا بما قضى الله، وإن من شقاوة ابن آدم ترك استخارة الله، وسخطه بما قضى الله**» رواه أحمد.

وكان ﷺ إذا ركب راحلته كبّر ثلاثاً، ثم قال: «**سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين، وإنا إلى ربنا لمنقلبون**»، ثم يقول: «**اللهم إني**

أسألك في سفري هذا البر والتقوى، ومن العمل ما ترضى، اللهم هوّن علينا السفر، واطوِ عنا بعده، اللهم أنت الصاحب في السفر، والخليفة في الأهل، اللهم اصحبنا في سفرنا، واخلفنا في أهلنا» رواه مسلم.

وإذا رجع من سفره قال: «**آيبون تائبون عابدون لربنا حامدون**» رواه مسلم.

وكان إذا ودَّع أصحابه في السفر يقول لأحدهم: «**أستودعُ الله دينك وأمانتك وخواتيم عملك**» رواه الترمذي.

وكان يقول ﷺ: «**لا تصحب الملائكة رفقةً فيها كلبٌ ولا جرس**» رواه مسلم.

وكان يقول: «**إذا نزل أحدكم منزلاً فليقل: أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق، فإنه لا يضره شيء حتى يرتحل منه**» رواه مسلم.

وكان ﷺ ينهى أن تسافر المرأة بغير محرم..

ويأمر المسافر إذا قضى نهمته من سفره بأن يعجّل بالرجوع إلى أهله، وينهى أن يطرق الرجل أهله ليلاً إذا طالت غيبته عنهم..

وكان ﷺ يعتنق القادم من السفر ويقبله إذا كان من أهله.

* * *

هديه ﷺ في الدعوة إلى الله..!

تنبيه: لعلّنا -عزيزي الشاب المسلم- في مسيس الحاجة إلى معرفة كيف كان رسولُ الله ﷺ يدعو إلى ربه رغم ما لقي من عنت وشدة وإعراض واستهزاء، لنضع منهجه ﷺ نصب أعيننا؛ نلتزمه في دعوتنا إلى الله عز وجل.!

تُرى كيف كانت صورة هذه الدعوة إلى الله..؟! هذا ما أدعوك إلى معرفته من خلال العلامة ابن القيِّم..!

يقول العلامة ابن القيِّم:

لقد دعا رسول الله ﷺ إلى الله، فاستجاب له عباد الله من كل قبيلة، وكان ممن سبق إلى الإسلام صدِّيق الأمة أبوبكر رضي الله عنه الذي آزر النبيَّ ﷺ، ودعا معه إلى الله، فاستجاب لأبي بكر عثمان بن عفان وطلحة بن عبيدالله وسعد بن أبي وقاص، واستجاب لرسول الله ﷺ زوجه خديجة بنت خويلد رضي الله عنها؛ فإنه ﷺ حين كاشفها بأمر بعثته ﷺ قالت: أبشر فوالله لا يخزيك الله أبداً..

فقد هدت الفطرة السليمة السيدة خديجة رضي الله عنها إلى الإيمان بزوجها ﷺ، وبذلك استحقت أن يرسل إليها ربها السلام منه مع جبريل عليه السلام.

وبادر إلى الإسلام علي بن أبي طالب رضي الله عنه وهو ابن ثمان سنين، وكذلك أسلم زيد بن حارثة رضي الله عنه الذي جاء أبوه وعمه في فدائه، فقال لهما رسولُ الله ﷺ: «**أدعوه فأخبره، فإن اختاركم فهو لكم، وإن اختارني، فوالله ما أنا بالذي أختار على من اختارني أحداً**»، فوافقا، فدعا رسولُ الله ﷺ زيداً وخيّره، فقال زيد: ما أنا بالذي أختار عليك أحداً. قالا: ويحك يا زيد، أتختار العبودية على الحرية، وعلى أهل بيتك؟ قال زيد: نعم، لقد رأيت من هذا الرجل شيئاً ما أنا بالذي أختار عليه أحداً أبداً..

فلما رأى ذلك رسولُ الله ﷺ أخرجه إلى الحجر، فقال: «**أشهدكم أن زيداً ابني أرثه ويرثني**»، فلما رأى ذلك أبوه وعمه طابت أنفسهما وانصرفا، ودعي زيد بن محمد حتى نزل قوله تعالى: ﴿**ادْعُوهُمْ لآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ**﴾ [**الأحزاب**: ٥]، فدعي من يومها زيد بن حارثة.

ودخل الناس في دين الله واحداً بعد واحد.

وحين رأت قريش دخول الناس في الإسلام شمروا له ولأصحابه عن ساق العداوة؛ فحمى الله رسولَهُ بأبي طالب؛ لأنه كان شريفاً معظماً فيهم.

فلما اشتد إيذاء قريش لأصحاب رسول الله ﷺ أذن لهم سبحانه في الهجرة الأولى إلى الحبشة، فكان من أوائل من هاجر عثمان بن عفان وزوجته

رقية بنت رسول الله ﷺ، وكان أهل هذه الهجرة اثني عشر رجلاً وأربع نسوة..

ولما كان شهر ربيع الأول سنة سبع من الهجرة كتب رسولُ الله ﷺ كتاباً إلى النجاشي يدعوه إلى الإسلام فأسلم، وقال: لو قدرت أن آتيه لأتيته.

وكتب إليه رسولُ الله أن يزوّجه أم حبيبة بنت أبي سفيان، وكانت فيمن هاجر إلى الحبشة مع زوجها عبيدالله بن جحش فتنصر هناك ومات نصرانياً، فزوّجه النجاشي إياها، وأصدقها عنه أربعمائة دينار..!

* * *

الإسراء والمعراج:

يقول ابن القيِّم: أسري برسول الله ﷺ بجسده على الصحيح من المسجد الحرام إلى بيت المقدس راكباً على البراق بصحبة جبريل عليه السلام، فنزل هناك، وصلّى بالأنبياء إماماً، وربط البراق بحلقة باب المسجد، ثم عُرج به تلك الليلة من بيت المقدس إلى السماء الدنيا، فاستفتح له جبريل عليه السلام، ففتح لهما، فرأى هناك آدم عليه السلام أبا البشر، فسلم عليه، فرد عليه السلام ورحب به وأقر بنبوّته، ثم عرج به إلى السماء

الثانية فرأى فيها يحيى وعيسى عليهما السلام، ثم عرج به إلى السماء الثالثة، فرأى فيها يوسف عليه السلام، ثم إلى الرابعة فرأى فيه إدريس عليه السلام، ثم إلى الخامسة فرأى فيها هارون عليه السلام، ثم إلى السادسة، فرأى فيها موسى عليه السلام، ثم إلى السابعة فلقي فيها إبراهيم عليه السلام.

ثم رفعت له سدرة المنتهى، ثم رفع له البيت المعمور، ثم عرج به إلى الجبار جلّ جلاله، فأوحى إلى عبده ما أوحى، وفرض عليه خمسين صلاة.

فرجع حتى مر على موسى عليه السلام فقال: بم أُمرتَ؟ قال: **بخمسين صلاة**، قال: إن أمتك لا يطيقون ذلك، ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك.. فراجعه فوضع عنه عشراً ثم مر بموسى عليه السلام فأخبره، فقال: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف فرجع وهكذا، حتى جعلها خمس صلوات، حيث قال رسول الله ﷺ: «**قد استحييت من ربي، ولكن أرضى وأسلِّم**».. فنادى مناد: قد أمضيتُ فريضتي وخففّتُ عن عبادي.

ويناقش الإمام ابن القيِّم الرأي: هل رأى الرسول ﷺ ربه ليلة المعراج أم لا؟.

يقول ابن القيِّم: صحّ عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبيّ ﷺ رأى ربه، وصح عنه أنه قال: رآه بفؤاده..

وصح عن عائشة وابن مسعود رضي الله عنهما إنكار ذلك، وقالا: إن قوله: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ﴾ إنما رأى جبريل عليه السلام.

وسأل أبوذر رضي الله عنه رسولَ الله ﷺ: هل رأيت ربك..؟

قال ﷺ: «**نور أنَّى أراه**».. و«**رأيت نوراً**»..

ولما أصبح رسولُ الله ﷺ في قومه أخبرهم، فاشتد تكذيبهم له، وسألوه أن يصف لهم بيت المقدس، فجلاه الله حتى عاينه، وطفق يخبرهم عنه، ولا يستطيعون الرد عليه، وأخبرهم عن عيرهم، في مسراه ورجوعه، وعن وقت قدومها، وعن البعير الذي يقدمها، فكان الأمر كما قال فلم يزدهم ذلك إلا نفوراً.

ويناقش الإمام ابن القيِّم الادعاء بأن الإسراء كان بالروح فقط، كما نقل ابن إسحاق عن عائشة ومعاوية أنهما قالا: إنما كان الإسراء بروحه ﷺ.

يرد الإمام ابن القيِّم قائلاً: يجب التفرقة بين أن يقال: كان الإسراء مناماً، وبين أن يقال: كان بروحه دون جسده..!

فإن ما يراه النائم أمثال مضروبة، ضربها له ملك الرؤيا، ولم تصعد روحه ولم تذهب، أما الذين قالوا: أسري بروحه؛ فأرادوا أن الروح عرج بها

حقيقة، وباشرت منه جنس ما تباشر بعد المفارقة، حينما كان الرسول ﷺ في مقام خرق العوائد حتى شق بطنه وهو حي لا يتألم بذلك، فإنه عرج بذات روحه حقيقة من غير إماتة.

ويهاجم الإمام ابن القيِّم الرأي الذي يدعي أن الرسول الأعظم ﷺ أسري به مرتين وثلاث مرات، ويؤكد أن هذا خبط وضعف من أرباب النقل، وأن الصواب الذي عليه أئمة النقل أن الإسراء كان مرة واحدة.

* * *

أقام ﷺ ثلاث سنين منذ بعثته مستخفياً، يدعو إلى الله سراً، ثم أعلن في الرابعة، فدعا الناس إلى الإسلام عشر سنين، وهو يقول:

«**يا أيها الناس قولوا لا إله إلا الله تفلحوا وتملكوا بها العرب، وتذل لكم بها العجم، وإذا آمنتم كنتم ملوكاً في الجنة**»، وأبولهب وراءه يقول: لا تطيعوه، فإنه صابئ كذّاب..!

وعرض ﷺ نفسه على القبائل، فلم يستجب له منهم أحد.

وكانت الأنصار يحجون البيت كما كانت العرب تحجه دون اليهود، فلما رأوا رسول الله ﷺ يدعو الناس إلى الله وتأملوا أحواله قال بعضهم لبعض: تعلمون والله يا قوم أن هذا الذي توعدكم به يهود، فلا يسبقنكم إليه.

ثم إن رسول الله ﷺ لقي عند العقبة في الموسم ستة نفر من الأنصار كلهم من الخزرج: أسعد بن زُرارة، وجابر بن عبدالله بن رئاب، وعوف بن الحارث، ورافع بن مالك، وقطبة وعقبة ابني عامر، فدعاهم إلى الإسلام فأسلموا، ثم رجعوا إلى المدينة، فدعوا الناس إلى الإسلام، فلما كان العام المقبل، جاء منهم اثنا عشر رجلاً، فدعاهم إلى أن يبايعوه، فقالوا: يا رسول الله، علام نبايعك؟ قال ﷺ: «**على السمع والطاعة في النشاط والكسل، وعلى النفقة في العسر واليسر، وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وعلى أن تقوموا في الله لا تأخذكم لومة لائم، وعلى أن تنصروني إذا قدمت عليكم، وتمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم وأزواجكم وأبناءكم ولكم الجنة**»، فبايعوه جميعاً..!

وبعث رسول الله ﷺ معهم إلى المدينة ابن أم مكتوم ومصعب بن عمير يعلمان الناس القرآن، ويدعوان إلى الله.

ثم كانت بيعة العقبة.. ثم اشتد أذى الكفار للمسلمين فأذن لهم رسول الله ﷺ بالهجرة إلى المدينة، فكان أول من خرج من مكة مهاجراً إلى المدينة أبوسلمة وامرأته، ثم خرج الناس أرسالاً، ولم يبق بمكة إلا رسول الله ﷺ وأبوبكر وعلي، وخاف المشركون أن يهاجر رسول الله ﷺ فأجمعوا

على أن يضربوه بالسيوف ضربة رجل واحد، فأتى جبريلُ رسولَ الله ﷺ فأخبره بذلك وأمره ألا ينام في مضجعه تلك الليلة، فأمر ﷺ علياً رضي الله عنه أن يبيت في مضجعه تلك الليلة، وخرج وأبوبكر من مكة إلى غار ثور.

ونسج العنكبوت بيته على بابه..

ثم قدّر الله سبحانه للرسول ﷺ وصاحبه النجاة من قريش، ومرَّا في مسيرهما بخيمة أم معبد الخزاعية، وسألوها زاداً، فلم يجدوا عندها غير شاة هزيلة، فدعا رسول الله ﷺ ومسح بيده الشريفة ضرعها، وسمّى الله تعالى فتدفق اللبن، فسقى المرأة وسقى صاحبه وشرب آخرهم..

وبلغ الأنصار خروج رسول الله ﷺ إليهم، فكانوا يخرجون كل يوم إلى الحرة ينتظرونه، فلما كان يوم الإثنين ثاني عشر ربيع الأول على رأس ثلاث عشرة سنة من البعثة رأوا النبيّ ﷺ فكبروا فرحاً بقدومه، وخرجوا للقائه، وحيوه بتحية النبوة، وأحدقوا به وطافوا حوله، وسار الرسول ﷺ حتى نزل بقباء في بني عمرو بن عوف، فأقام أربع عشرة ليلة، وأسس مسجد قباء، وهو أول مسجد أسس بعد النبوة، فلما كان في يوم الجمعة ركب بأمر الله له، وجمَّع ببني سالم بن عوف في المسجد الذي في بطن الوادي، ثم ركب وقال لهم: «**خلوا سبيلها، فإنها مأمورة**» فسارت ناقته حتى بركت موضع

مسجده الآن، فنزل عنها في بني النجار أخواله، وبادر أبوأيوب إلى راحلته فأدخله بيته.. فأقام به ﷺ حتى بنى مسجده وحُجَره.

وكان موضع مسجده ﷺ مِرْبداً ليتيمين في حجر أسعد بن زُرارة، فابتاعه الرسول ﷺ منهما بعشرة دنانير، وبناه وصحابته باللَّبِنِ، وكان ﷺ ينقل اللَّبِنِ والحجارة بنفسه وهو يقول:

اللَّهمَّ لا عيشَ إلا عيشُ الآخره فاغفر للأنصار والمهاجرة

وجعل أصحابه يرتجزون وهم يعملون:

لئن قعدنا والرسولُ يعمل لذاك منَّا العملُ المضلَّلُ

وبنى الرسول ﷺ بيوتاً إلى جانب المسجد لأزواجه باللَّبِنِ، فلما فرغ من البناء بنى بعائشة، ثم آخى بين المهاجرين والأنصار، ووادع يهود المدينة، وكتب بينه وبينهم كتاباً، وبادر حَبْرُهم عبدالله بن سلام ودخل في الإسلام، أما عامتهم فأبوا إلا الكفر، وكانوا ثلاث قبائل:

* بنو قينقاع.

* بنو النَّضير، حاربهم الرسول ﷺ، وفي شأنهم نزلت سورة الحشر.

* بنو قُرَيظة، حاربهم الرسول ﷺ، ونزلت في شأنهم سورة الأحزاب، وقتلهم وسبى ذريتهم.

وتحولت القبلة إلى المسجد الحرام بعد مَقْدَمه ﷺ المدينة بستة عشر شهراً.

ودخل الناس في دين الله أفواجاً.. وذلك بأمر الله سبحانه وتعالى، وخاض الرسول الأعظم ﷺ وصَحْبُه من المهاجرين والأنصار العديد من الغزوات والحروب لتكون كلمة الله سبحانه هي العليا، وكلمة الذين كفروا السفلى، وسبحانه القادر على نصر رسوله.. ﴿**إِن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ فَلا غَالِبَ لَكُمْ**﴾.

* * *

بعدما تجوّلنا -عزيزي الشاب المسلم- في كتاب **(زاد المعاد في هدي خير العباد)** للعلامة ابن قيِّم الجوزية، محمد بن أبي بكر بن سعد بن حريز الزرعي الدمشقي، والملقب بشمس الدين، والمكنى بأبي عبدالله، نقف -عزيزي- عدة وقفات مع مؤلفه، نناقشه فيما أورده من آراء..

وبادئ ذي بدء نقول:

إنه كتاب ضخم في السيرة النبوية، ألفه الإمام ابن القيِّم حبّاً في رسول الله ﷺ، فهو كتاب تحية وإعجاب من الإمام ابن القيِّم للرسول ﷺ.

والحقيقة أن الإمام ابن القيِّم لا ينسى أن يطبق منهجه في التأليف هنا في كتابه القيِّم (زاد المعاد)، فهو يعتمد على القرآن الكريم في التأريخ

للمصطفى المختار ﷺ وفي كتابة سيرته العطرة، ويتقصى أخباره ﷺ ممن كتبوا قبله، وواضح أن ابن قيِّم الجوزية لم يكن ناقلاً للأخبار فحسب وإنما هو ناقد يغربل الكلام، ويميز صحيح الأخبار من ضعيفها، فهو يناقش آراء من سبقوه، ويلزمهم الحجة الدامغة، ويورد رأيه مؤيداً بالبراهين والأدلة الواضحة.

إنه يورد الآراء المذكورة في شأن ما من شؤون السيرة العطرة، يسردها جميعاً، ثم يناقش حجج كل منها، فيرفض منها ما لا يتفق مع الدين والعقل، ويؤيد ما يوافقهما..

نرجو من الله –جل وعلا– أن نكون قد وفقنا في عرضنا المختصر لبعض مباحث كتاب (زاد المعاد) للإمام ابن قيِّم الجوزية –رحمه الله– لعله يكون نواة للاستفادة من هذا الكتاب العظيم وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

* * *

obeikandl.com

Printing & Packaging
Tel: (01) 288 1144